المكتبة الزروقية



صور من الذكريات الأولى

أحمد زروق

تقديم وتحقيق

الدكتور علي فهمي خشيم

المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان

المكتبة الزروقية



صور من الذكريات الأولى

أحمد زروق

تقديم وتحقيق
الدكتور علي فهمي خشيم

منشورات
المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمـة

« الكناش » (ويؤنث أحياناً فيقال : « الكناشة ») لفظ ذاع في شمال أفريقيا بخاصة للتعبير عن مجموعة من كتابات عالم أو أستاذ ، أكثر ما تكون خليطاً من الأفكار والأقوال والملخصات والذكريات والفوائد العلمية ، إلى آخر ما يمكن أن يسجله صاحبه . ويبدو هذا — في مجمله — مزيجاً من الكتابة وتسجيل الخواطر والشواهد على نسق غير علمي . فهو بهذا عبارة عن « كشكول » منوع غير متجانس في الغالب الأعم . وهذا ما جعل الأستاذ « رن » يرجع اللفظ إلى تحريف جرى على جملة واحدة معبرة عن واقع الحال ، هي : « من كل ناش »* .

وهذا أيضاً ما جعل بعض الكتاب أو النساخ يسمون مؤلف الشيخ أحمد زروق الذي بين أيدينا الآن : « الكناش . . في علم آش » — أي : في علم أي شيء ! وهذه — في الحق — تسمية موفقة ، بلا ريب . فإن « كناش زروق » ليس غير « شيء من كل شيء » أو هو « أي شيء من أي شيء » — إن أردنا الدقة في التعبير . ونظرة عجلى على محتوياته تبين ما نرمي إليه :

بداية سيرة ذاتية — شيوخ عرفهم زروق — طريقة أخذ العهد — عند السهروردية — دعاء وابتهالات — بعض الأحزاب — وصفات طبية — منافع بعض المواد والنباتات — صلوات شاذلية — أحاديث نبوية وشرحها — الصلاة على النبي الكريم — عن أسماء الله الحسنى — أصول التصوف —

---

*"de tout receill". Rinn; Marabouts et Khouan, P 421.

وجاء في « لسان العرب » أن الكنش أن يأخذ الرجل المسواك فيلين رأسه بعد خشونة . يقال : قد كنشه بعد خشونة . والكنش : فتل الأكسية . ولعل للكلمة — بعد ذلك — أصلا فارسياً .

عن الطهارة – عن الأخلاق – فواتح بعض السور القرآنية – أصول التصوف مرة أخرى – العد بالأصابع – ملخص طبي عن كتاب « التيسير » لعبد الملك بن أبي العلاء . ويتخلل هذا المحتوى عدد كبير من الآراء والخواطر والتعليقات مرتبطة بالسياق أو غير مرتبطة .

وقد يكون في كثير مما يذكر في « الكناش » فائدة ونفع . غير أن أهم جزء فيه هو بدايته ، أعني بداية سيرة زروق الذاتية .

* * *

إن أول ما يتبادر إلى الذهن حين ننظر في « الكناش » هو الشك في ما إذا كان هذا الأثر – بوضعه الذي هو عليه وترتيبه المتداول – هو حقيقة من وضع زروق أم أن في الأمر لبساً . ويدفعنا إلى هذا الشك ما نراه من هذا الخلط الغريب فيه ، ثم ما نعرفه – تمام المعرفة – عن ذهن شيخنا المنظم المرتب الدقيق ، بل الشديد الدقة في مؤلفاته الموثقة المعروفة . فهذه الدقة العجيبة الظاهرة في « قواعد التصوف » حيث يؤسس أصول المذهب قاعدة قاعدة بلغة جميلة بالغة التماسك وفكر مرتب مركز ، أو في « إعانة المتوجه المسكين » حيث ينطلق من فكرة إلى أخرى ومن أصل إلى سواه بتسلسل متين البناء واضح الطراز ، أو في « عدة المريد الصادق » حيث يمضي بنا المؤلف سلس العبارة رائق اللفظ حلي الحديث . . هذه الدقة والضبط مفقودان تماماً في « الكناش » اللهم سوى ما جاء في بدايته .

من هنا فإن المرجح لدينا أن « كناش زروق » لم يكن من ترتيب الأستاذ ، بل جاء نتيجة عمل أحد تلامذته ، أو واحد ممن اطّلع على تركته العلمية وحصل على بعض مخلفات الشيخ بعيد وفاته مما كتب من مقتطفات ومختصرات وأفكار ، عمد إلى جمعها ثم ضمها في كتاب واحد انتشر بعد ذلك وذاع .

ولنا في هذا الباب قرائن ثلاث :

أولها : ما عرف عن زروق من اتباعه النظام العلمي الدقيق في تسجيل ما يراه ويعجب به ، أو يعنّ له ، في جذاذات يحفظها وتحفظ

له ما أراد حفظه ، ثم يعود إليها من بعد . . مثلما فعل في بواكير حياته الأولى في مؤلفه « تحفة المريد » .

وثانيها : أن العياشي ذكر في « رحلته » بالتفصيل زمام الشيخ — أي تركته — نقلها من ورقة محفوظة بالنص ، وكانت تحتوي على مخلفاته العلمية مما ألفه هو أو ما وجد في مكتبته من مؤلفات سواه . وقد خص العياشي « الكناش » بالذكر مرتين وحـدد أن « كناشه محتوٍ على وظائفه وغير ذلك » . وهذا يعني أن « الكناش » كان في البداية جملة ما جمع الشيخ ليس بغرض التأليف وإنما لغاية التسجيل .

وثالثها : ما ورد في آخر نسخة تونس من أن « الكناش » كان من « جمع محمد بن نصر بن عبد الباسط المصراتي » . وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن محمد المصراتي هذا فإنه من الواضح أنه هو الذي جمع هذا « الكناش » . ويؤيد هذا الرأي ما كان ثابتاً من وجود الشيخ في مصراتة حين كتب وحين انتقل إلى الرفيق الأعلى . كما أن كلمة « الجمع » هنا لا تعني النسخ بدليل ذكر اسم الناسخ بعد ذلك . بل هي — فيما نرى — تدل على القيام بالترتيب والتبويب وليس النسخ بحال .

ولا يعني هذا أننا نشك في نسبة ما جاء في « الكناش » إلى الشيخ زروق ، بل نرمي إلى الخلوص إلى القول بأن « الكناش » في أساسه ينقسم إلى قسمين :

الأول : سيرة ذاتية بدأ الشيخ في تسجيلها ، ولا علاقة لها بما جاء بعد ذلك في الكتاب .

الثاني : مجموعة تسجيلات في مختلف الموضوعات كان دوّنها بغرض العودة إليها — في الأغلب — وهي ما يظهر فيها الخلط والتنوع وعدم التناسق ، فجاء من جمعها وضمها إلى القسم الأول لتكون مجلداً واحداً — حسبما هو معروف ومتداول .

فإذا رضينا بهذه النتيجة حق لنا التصرف على أساسها ، وجاز لنا أن

نلغي القسم الثاني من حسابنا ، باعتباره غير ذي قيمة كبيرة فيما يتعلق بحياة زروق وذكرياته . ثم نكتفي بالقسم الأول الذي ننشره في ما يلي من الصفحات .

* * *

كان الشيخ زروق قد ناهز الخمسين من عمره – حسبما يثبت هو – يوم بدأ يكتب ترجمة حياته . فإذا قلنا إنه كان في التاسعة والأربعين آنذاك ، فإن هذا يعني أنه بدأ كتابه سنة ٨٩٤ هـ . إذ توفي – رحمه الله – سنة ٨٩٩ هـ . وكان حينئذ في مصراتة حيث استقر به المقام بعد تطوافه الطويل بين أقطار المغرب وليبيا ومصر والحجاز .

ويمكننا أن نحكم من صيغة ما كتب ، والتفصيلات الجزئية التي يوردها ، أنه كان ينوي إتمام ترجمة حياته بقلمه ، منذ يوم ولادته حتى اليوم الذي ينتهي فيه منها . بيد أنه يبدو أن أمراً عارضاً منعه من إكمال ما بدأ فيه وجعله يتوقف عند تسجيل بواكير صباه وصدر شبابه وينقطع حبل الحديث عند سياحته الأربعينية حين خرج من فاس إلى تلمسان ، ثم عودته إلى فاس . والمرجح أن هذا حدث سنة ٨٧٠ هـ . أي أنه يروي بعض أحداث السنوات الأربع والعشرين الأولى من حياته ، ويقف قلمه بعد ذلك عن الاسترسال .

وليس لنا هنا إلا إبداء الأسف على ما حدث . فلو أن الشيخ مضى في تسجيل ما بقي لتجمعت لنا من هذا جملة من المعارف والمعلومات ، ليس فقط عنه هو ذاته بل أيضاً عن رجال عصره والحوادث التي جرت فيه ، ولألممنا بصورة توشك أن تكون متكاملة عن ذلك العصر المشحون بالتيارات والصراع الديني والسياسي والاجتماعي – على حد سواء . ولو أنه أكمل ما بدأ لعرفنا أشياء كثيرة عن أحوال المغرب الأقصى وشمال أفريقيا كله وليبيا ومصر والحجاز . . وهي البلاد التي نشأ في أولاها وتنقل في بقيتها حتى تخير موطناً ، في ليبيا – مدينة مصراتة – ليقضي بها بقية أيامه .

وليس لنا إلا أن نقنع بهذه السطور من كتاب حياة حافل لعالم جليل ، وأستاذ كريم ، وشيخ صوفي فقيه ، عاش حياته طالباً للعلم ، سائراً إلى

الحق ، مرشداً إلى الخير ، عزيزاً في نفسه ، مكتفياً من الدنيا بلقمة تسد رمقه ، وكتاب يروي ظمأه ، وقلم سطر به آلاف الصفحات* .

* * *

ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية ما سجله زروق في « كناشه » عن حياته وأحداث عصره ورجاله ، حتى بات مرجعاً معتمداً لمن كتبوا بعده عن ذلك العصر وأولئك الرجال . ويكفي أن نذكر استناد أحمد بابا التنبكتي في كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » على روايات زروق ، وكذلك ما ينقله ويقتبسه عنه مؤرخ المغرب الكبير أحمد الناصري في كتابه « الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى » . وهما ينقلان عن « الكناش » نقلاً مباشراً ويرجعان إليه ويضعان أقوال زروق مقرونة باسمه مصدراً معتمداً لهما .

* * *

أما عن تحقيق هذا الأثر فقد اعتمدنا على مخطوطين في ذلك :

أولهما : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٩١١ (٤٦٨٤ م). نسخه أحمد بن خلف الله بن أحمد الشريف سنة ١١٩٣ هـ . وكان من ممتلكات سالم بن أحمد بن علي بن سالم الطاهري الأنصاري الزليتني .

وثانيهما: مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٣٨٥ ك (مكتبة عبد الحي الكتاني) – الصفحات ٥٨ – ١٠٣ ضمن مجموع يحتوي على بعض المؤلفات الأخرى لزروق . وليس به تاريخ نسخ ولا اسم الناسخ .

وليس بين المخطوطين كبير اختلاف ، سوى في بعض المواطن التي

* للقارئ أن يعود إلى كتاب المحقق : « أحمد زروق والزروقية » نشر دار مكتبة الفكر – طرابلس – ١٩٧٥ م . إذا رام معرفة المزيد عن حياة الشيخ وفكره .

أشير إليها عند الضرورة ، وإن كان الثاني أوضح خطاً وأدق ضبطاً من الأول .

وقد علقنا – في بعض المواضع – على النص في مواقعها مما أشير إليه بعلامة * وأضفنا ملحقاً بأرقام مسلسلة في آخره للتعليق على بعض الأحداث وتذييلات مختلفة .

صور من الذكريات الأولى

«كان مولدي عند طلوع الشمس من يوم الخميس ، الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة* .

أخبرتني بذلك جدتي ، أم البنين ، الفقيهة . وكانت من الصالحات(١) .

ثم توفيت والدتي يوم السبت التالي لتاريخه عن ثلاث وعشرين سنة . ثم توفي والدي يوم الثلاثاء سادس ولادتي عن ثنتين وثلاثين سنة . وكان والده قد توفي قبل ولادتي بستة أيام عن ثلاث وخمسين سنة**(٢) .

الوصية :

ولما حضرت والدي الوفاة عهد بي لأمه ، وكانت مبذرة جداً ، وأوصى بثلث ماله لمؤذني جامع الأندلس . قالت جدتي : « فقلت له : ما هذا الذي صنعت ؟ أوصيت بالثلث ، ونقصت الثلث لهذا الولد ، وهو علقة . وما قنعت حتى أوصيت أمك ، وتعلم أنها تعطيه للطرارح***؟» . قالت : « فقال لي : ما أوصيت به قدمته لموضع أنا أحوج فيه منه ؛ بنيت به قصراً في الجنة . والباقي أوصيت به أمي . وولدي هذا توكلت به على الله » . ثم نظر إلى وقال : « أبشر يا ولدي . . استودعتك الله ! » . ثم مات — رحمه الله — لا أدري في وقته أو بعده .

فوالله ما انتفعتُ بماله في شيء معتبر ، ولا ذللت ، ولا سألت ، ولا انتفعت بسببه ، ولا أصابتني فاقة إلى الآن — وقد ناهزتُ الخمسين .

* السابع من شهر يونية سنة ١٤٤٢ ميلادية .

** لم يذكر عمر والد زروق ولا جده حين توفيا في مخطوط تونس . وأثبت عمراهما بالأرقام في مخطوط الرباط .

*** الطرارح = الفاسدين من الناس . ولا تزال كلمة « طراح » في لهجة أهل ليبيا تعني الذي لا نفع فيه ولا خير . ولعلها من الطرح أي الاسقاط والاستهتار .

ولا أعلم أنني احتجت ديناراً إلا تيسر ، ولا مائة إلا تيسرت ، من وجه عزيز سهل حلال . فالحمد لله على ذلك !

ولقد حدثتني جدتي أنهم أخذوا لي مرضعةً بإجارة من مال أبي . فحلف لها زوج خالتي أن لا تخرج من داره ، ينفق عليها مدة رضاعي . فكانت تأخذ ذلك ولا يعود علي منه شيء .

ولقد حججت أول حجة بمائة وسبعين ديناراً ، ما أعلم منها — يوم عزمت عليها — درهماً واحداً أملكه . ولا يوم خرجت من البلد ، إلا حماراً وكتيّبات لم يعد ذلك على نفقتي بشيء .

ولقد تزوجت خمساً من النساء ، كلهن على الفتح ، من أول الأمر إلى آخره (٣) .

ويجري على يدي من الأرزاق لكثير من الناس مالا يحصى. فللّه الحمد والمنـــة .

الاسم :

وكان الوالد قد سماني « محمداً » . فلما توفي نقلوني لاسمه « أحمد » . فجمع الله لي بين الاسمين الشريفين . واخترت « أحمد » لثلاثة أوجه (٤) :

أحدها لإلفي به وجريانه على لسان جدتي التي كنت أسكن إليها ؛ لأنها كانت أرفق بي ، مع أنها عالمة صالحة .

الثاني قويت ذلك بأنه لم يتغيّر في ألسنة العامة ، بل هو باق على أصل الوضع ، بخلاف الآخر ؛ فإن العامة غيرت حركاته . ولو أن رجلاً تمسّك بوضعه الأول لكفّروه وأنكروه . والأسماء معتبرة باللفظ ، لقوله (عليه السلام) : « إن الله صرف عنّي أذى قريش وسبّهم : يسبون (مذمّماً) وأنا (محمد) » .

الثالث أنه الاسم الذي وقعت به بشرى عيسى (عليه السلام)* ، ولم يتسمّ به أحد قبله (عليه السلام) .

لذلك ففيه من الاختصاص الخاص [ما فيه] والله المسئول في الاتّباع بمنّه .

وكان جدي أزرق العينين ، فقالوا له : « زروقاً » . فسرت في عقبه .

الرضاع :

قالت جدتي : وكانت مدة رضاعي تسعة أشهر ، لأمر عرض منع من إكمالها ؛ وهو أن المرضعة قالت لبعض الناس : « هذا شريف يتيم ، كفلته لله » . فبلغ ذلك الفقيهة ، فأنفت منه ، ونزعتني منها ،. وكانت تغذيني بالجوز والتين ، تمضغه وتطعمنيه . . .

الجدة المعلمة :

تحققت ليلة أني نظرت في نجم ، وسألت جدتي عن أمر الله فيه ، فبينت لي واجب الاعتقاد . وكانت بعد ذلك تتعجب وتقول : « يستدل على التوحيد وهو ابن سنتين » !

وعلمتني الصلاة ، وأمرتني بها ، وأنا ابن خمس سنين . فكنت أصلّي إذ ّاك .

وأدخلتني الكُتّاب في هذا السنّ ؛ فكانت تعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والديانة بطريق عجيب . وذلك أنها كانت في بعض الأيام تهيىء لي طعاماً . فإذا جئت من الكُتّاب للفطور تقول : « ما عندي شيء . ولكن الرزق في خزائن المولى — عز وجل . فاجلس نطلب الله » . فتمد يديها ، وأمد يدي إلى السماء داعيَيْن ساعة . ثم تقول : « أنظر ! لعل الله جعل في أركان البيت شيئاً ، فإن الرزق خفيّ » . فنقوم نفتش — أنا وهي — فإذا عثرت على ذلك الطعام يعظم فرحي به ، وبالله الذي فتح به . فتقول : « تعال نشكر قبل أن نأكله ، لأجل أن يزيدنا مولانا » . فنمد أيدينا ،

---

* الإشارة هنا إلى الآية الكريمة : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » — سورة الصف ، آية ٦١ .

ونأخذ في الحمد والشكر لله ساعة ، ثم نتناوله . وتفعل ذلك المرة بعد المرة ، ولم تزل كذلك حتى عقلت .

حكايات الطفولة :

وكانت تحدثني بحكايات الصالحين وأهل التوكل ، وغير ذلك من مقويات الإيمان . وما كانت تحدثني في موضع الخرافات إلا بمعجزاته (صلى الله عليه وسلم) وغزواته ، وغرائب الكرامات ، والمنقطعين إلى الله تعالى .

تعلم الصلاة :

وكانت تأمرني بالصلاة ، فأصلي بلا وضوء . فتقول لها خالتي في ذلك . فتقول لها : « دعيه يصلي بلا وضوء حتى يصلي بالوضوء » .

ولما ناهزت الاحتلام كانت تهيىء لي كل يوم درهماً . إذا قمت في الصبح أمد عيني وإذا بدرهم مطروح على الوسادة ، فتقول : « صل الصبح ، وتعال خذه » . وتقول : « هذا الدرهم يعينه على الصلاة ، ويمنعه من الفساد ، ويقيه التشوف للناس في الشهوات » .

التربية :

وكانت تتركني كثيراً ، لا تحلق رأسي ولا تغسل ثيابي ، إلا بعد مدة طويلة . وتقول : « الصغير إذا تنظف تبعته العيون فانفسد » . وسمعت خالها يقول لها : « لا توردیه خياطاً ؛ لأن الخياطة تستدعي النظافة ، وهي داعية الفساد » .

القراءة :

وكانت تدربني على نقد* الكتب ، وتحذرني الشعر ، وتقول لي :

---

* لعل المقصود تخير الكتب وانتقاؤها وتصفحها وقراءتها .

« من يترك العلم ويشتغل بالشعر كمن يبدل القمح بالشعير » . وكانت تقول : « لا بد من تعلم القراءة للدين والصناعة للمعاش » .

وكانوا يسلمونني لتعلم الصناعة* في الخميس والجمعة ، والاثنين إن خرجت من المكتب .

وقائع غريبة :

أولها : لما دخلت المكتب كتب لي الفقيه « ألم نشرح » في كفي الأيمن بالعسل ولعقته . فكنت من أحفظ الصبيان واهتديت إلى المكتب فما هربت منه قط . ولا علمت أنني لم أحفظ لوحي قط إلا يوماً واحداً .

الثانية : ما لعبت قط في المسجد ولا جريت فيه ، إلا يوماً واحداً ؛ فأصابتني حبة في إبهام رجلي . فلم تزل بي حتي تدودت ونتنت . ثم جرى من سنة الله في شأني أني ما وقعت في ذنب قط ، أول مرة ، إلا عوقبت في الحال . ثم لا أعاجل بالعقوبة بعد فيه إذا تكرر .

الثالثة : كنت يوماً جائزاً على « باب الشماعين » من « جامع القرويين » ، فإذا برجل في يده مصحف دخل في بويب هناك كنت أظنه نافذاً وأظنه خرج من الناحية الأخرى . فلما عقلت إذا به طريق عرضه شبر في ارتفاع ذراع . فعلمت أنه أمر خارق للعادة .

الرابعة : تقاتلت مع صبية يوماً ، وكانوا ثمانية ، فخرجت منهم سالماً . فتبعت واحداً منهم إلى « سوق العطارين » ، فضربته بحجر في جبهته فجرحته ، فخيل لي أن كل حانوت فيه رجل بيده سكين ،

* كذا في النسختين . والمعروف أن زروقاً كان يتردد إلى أسكافي في مدينة فاس ليتعلم الخرازة منه .

كل واحد يريد أن يقتلني به . فدهشت ، فإذا بشيخ كبير عليه برنوس أسود ، فأمني وجعلني تحت برنوسه حتى وصّلني للدار . فلما عقلت عرفت أن ذلك بالخارق لا بالعادة .

الخامسة: مرضت في مصر مرضات أربع ، كل مرة أربعة أشهر . وفي كل مرة لا أبرأ حتى أداوم على أكل الزيتون الأسود مدة لا أتقوت بغيره . فذكرت ذلك لشيخنا أبي عبد الله القوري – رحمه الله – فقال : « ذلك هو الذي جبرك . لأن السوداء هي صمغ البدن » . والله أعلم .

السادسة: كنت كثير الحياء والاستماع ؛ فإذا نهاني كبير انتهيت . فوقع أني كنت يوماً عند المحدث الذي يتكلم في الأسواق ، فإذا بخال جدتي جاءني وقال : « إنما يجلس هنا من لا خير فيه » . فما جلست عنده إلى الآن .

ورأتني الفقيهة أم هانئ العبدوسية – أخت سيدي أبي عبد الله العبدوسي – وفي يدي ورجلي حناء منقوشة ، فنهتني عنها وقالت : « إذا قالت لك جدتك : هات نعمل لك الحناء . فقل لها : لا » . ووالله ما عملتها بعد – وأنا إذ ّاك ابن خمس سنين

وكذلك نهاني بعض الصالحين عن حضور الكتاب الذي يقرأ فيه عند المحراب ، وقال : « لا يجلس هنا إلا عالم » . فما عدت بعد .

وكان الشيخ الفقيه القاضي سيدي أحمد بن العجل تزوج جدتي ، فنهاني يوماً عن سبق الأضياف للقصعة . فوقع ذلك في نفسي . فكنت أكرهه كالموت . وحتى الآن ما تناسيت ذلك ولا سمحت به .

السابعة : كنت يوم الخميس في سنة أربع وخمسين وثمانمائة أقرأ في اللوح ، فقال الفقيه : « إقرأ خمسين وإلا ضربتك خمسين » . فأخذت

فيها بجدّ ، وإذا بالناس يهربون كأن عندهم حركة لا أدري ما هي . فلما فرغت قالوا : كانت عندهم زلزلة عظيمة انهزمت الناس بها . وأخبرت أنها وافقت كون القارئ يقرأ في تفسير آي الزلزلة .

ومما عاينت سنة قتل اليهود (٥) ببلدنا — وكان ذلك سنة ثمان وستين وثمانمائة* في رمضان — أن اليوم الذي قتلوا فيه اليهود صادف في التفسير قوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . قرأ ذلك بعد الصبح ، وأخذوهم وقت الضحى ، يومَ الثلاثاء . وسيأتي خبرهم — إن شاء الله .

وعاينت أيضاً القارئ يقرأ في تفسير آي الكرسي . فذكر حكاية فيها أن موسى (عليه السلام) سأل ربه أن يريه برهان أنه لا ينام ، فقال : « خذ زجاجتين ، بعد سهر ليال ، واجعلهما في يدك » . ففعل . فوقعت إحداهما على الأخرى فكسرتها . فقال له : « لو نام ربك لسقطت السماوات على الأرض كإحدى الزجاجتين على الأخرى » . فلما بلغ ذكر انكسارها سقط قنديل عظيم على قنديلة فانكسرت في الحال ، موافقةً . فسبحان الله المدبر الحكيم !

ذكر من اجتمعت به في هذا الطور :

الوالد :

فأولهم والدي (٦) — على حسب ما ذكرت .

الفشتالي :

ثم خالي — أعني خال جدتي — الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد الفشتالي ، ثم السلوي ، المعروف بنور الله . كان يعلم الأولاد « بطالعة فاس » ، وكان مشهوراً بالديانة . وكان ينجر أعواد السُّرُج** في أوقات الفراغ .

* عند الناصري في « الاستقصا » أن السنة كانت تسعاً وستين وثمانمائة .

** في مخطوط تونس « أعواد الشرح » . ولعل المقصود تلك العيدان المستعملة قديماً في قناديل الزيت ، وقد أورد حديثها الجاحظ في كتاب « البخلاء » .

حدثتني جدتي أنه كان يختم في كل ثلاثة أيام . قالت : « وما كان يوقظني إلا بكاؤه في التلاوة ليلاً » . وكان من الشفقة والحنان والمروءة على الحد الكامل . وكان معظماً عند كافة أهل موضعه . وهو الذي حنّكني عند ولادتي . وكان يقول لجدتي : « يا أمي » ! توفي – رحمه الله – في سنة ست وخمسين وثمانمائة عن نحو ستين سنة . وكان آخر كلامه في الدنيا : « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً . إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » . انطبقت شفتاه مع (الباء) وأنا أنظر فيه – عند صلاة المغرب .

وكان سبب موته أن جندياً منع المؤذن من الرقي على صومعة المسجد ، فرافعه للسلطان (٧) ، فرأى ميلاً منه للجندي . وما زال يتكلم معه حتى ارتفع الأمر بينهما فانفلقت مرته* بالعياط . فبقي أياماً ومات .

ووجدنا في تركته شمعة وزنها قنطار . قالت زوجته بأنه أعدها للصدقة لكونها جاءت من عند القائد ابن جاء الخير .

قالت جدتي : وعليه قرأت القرآن مع أبي . فقال لها : « يا بنية ! من الغرائب كون المرأة تقرأ القرآن . ولكن عليك بسورة (السجدة) و (تبارك الذي بيده الملك) . . إقرئي بهما في كل ليلة ؛ فإنهما لك كقيام ليلة القدر » . فما رأيتها تتركهما حتى لقيت الله . وسألتها عن ابتداء أمرها فيهما ، فحسبت تاريخها ، فإذا هي من نحو سبعين سنة . قالت : « وما تزوج حتى جاوز الستين » . . . وكانت أخته أيضاً فقيهة صالحة . غفر الله لجميعهم بمنه وكرمه .

العَبدوسي :

ثم الفقيه الشيخ الصالح ، مفتي المسلمين ، أبو محمد عبد الله بن محمد ابن موسى العبدوسي . حملت إليه وأنا رضيع ، ولم أزل أتردد إليه في

---

* المرة : مزاج من أمزجة البدن – كما في « لسان العرب » لابن منظور عن ابن سيده .

ذلك السن ؛ لكون جدتي تقرأ مع أختيه فاطمة وأم هانئ — وكانتا فقيهتين صالحتين .

وهو قطب في السخاء ، إمام في نصح الأمة . أمات كثيراً من البدع الكائنة بالمغرب ، وأقام الحدود والحقوق . وتقلد في آخر عمره خطابة « جامع القرويين » نحواً من سنتين . ثم توفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة . وكان أكثر عمله فقه الحديث .

وقدم للفتيا شيخنا أبو عبد الله محمد القوري . فسمعت منه أنهم حسبوا الخارج من يده والداخل ، فوجدوا الخارج أكثر . وحدثنا أنه حفظ « مختصر مسلم » للقرطبي ، في كل خميس خمسة أحاديث كان أبوه يعطيه عليها درهماً . وشهرة أخلاقه وسخائه أكثر من أن تذكر .

وكان لا يدخر شيئاً ؛ حتى لم يوجد له حين مات إلا بدنان وحرامان ودرّاعتان أخذهما الأمير يحيي بن زيان (٨) ، وقال : « هكذا يكون الفقيه ، وإلا فلا » ! وكان يشترط العزل في النكاح ، فراراً من الولد ، لفساد الزمان . وقالوا : لم تفارقه الشمائل من كمه عاملاً بها .

وحدثت زوجته أنه كان يعمل الحوص بخفية ويعطيها رجلاً لا يعرف أنها له ، يبيعها ثم يتقوت بها في رمضان . ومناقبه — رحمه الله — كثيرة . وقد ألف فيها بعض أصحابنا فجمع شيئاً كثيراً . رحم الله الجميع بمنه وكرمه .

الوزروالي :

ثم الشيخ الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي ، قاضي « المدينة البيضاء » ومستناب « مدينة فاس » القديمة . تزوجته جدتي في سنة خمس ، أو ست ، وخمسين ، فأقامت عنده ثلاثة أشهر . ثم توفي — رحمه الله — في رمضان بالوباء .

حدثتني جدتي أنه كان يختم القرآن في كل أسبوع . وكان يعيد الصلاة التي كان صلاها حين كان قاضي المحلة — احتياطاً للنجاسة والعزوب . وذكرت من خيريته أموراً حدثها بها ؛ منها أنه دخل مدينة « فاس »

وليس عنده شيء ، واشتغل بنسخ الأمهات* ودراسة التهذيب . وكان يسأل داراً ورزقاً حلالاً . قال : « فبعت (المدونة) بثمن غال ، فحرثت به ، فصادف الغلاء عند الزرع ، فاشتريت هذه الدار كما أحب . . واستمر لي الخير » .

سمعت أنه كان الغالب عليه النحو ، وأنه كان متصوفاً ، وأن سيدي عبد الله — ابن عمه — كتب له في كتاب : « أقلل من علم الظاهر فإنه يقسى القلب » . — قلت : بما يعرض فيه ، لا بذاته .

توفي — رحمه الله — سنة ست وخمسين وثمانمائة ، عن نحو سبعين سنة . والله — تعالى — أعلم .

المكناسي :

ثم الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد المكناسي ، خطيب « جامع القرويين » بعد العبدوسي — رحمه الله . كان متصوفاً شاعراً ، ظريفاً ، فقيهاً . نظم « مسائل ابن جماعة » في البيوع ، وأنشد الشعر النفيس في التصوف وغيره .

عزل هو والقاضي الفخياري والفقيه القوري في يوم واحد ، ثم طلب للرجوع لإمامة « جامع الأندلس » فأبى ، وقال : « إن كان عزلي عن جرحة فلا يحل لكم تقديمي . وإن كان من غير جرحة فقبولي له من قلة الهمة » !

وكان يقرئ القرآن بـ « المدرسة المتوكلية » بأبي عنان . وكان أخوه — سيدي محمد بن سعيد — مشهوراً بالصلاح . وكان قد تلمذ ، وهو صغير ، لسيدي محمد الملواني الذي قال فيه ابن عباد : « ما أعلم أحداً في هذا الوقت أعلم منه بمواجيد القلوب » . ولم يفارقه حتى توفي ظاهر الاختلال في ولده المقتول .

ثم توفي — رحمة الله عليه — في حدود سنة سبعين وثمانمائة . وكان

* يعني أمهات الكتب .

مولده سنة أربعة من هذه المائة ؛ فسنه نيف وستون . وله ولد فقيه ، هو أحد عدول مدينة « فاس » ، اسمه أبو سعيد — أسعده الله وساعده بمنه وكرمه . وليس لي منه إلا أن صليت خلفه كثيراً ، جمعةً وغيرها .

الأنفاسي :

ثم الشيخ الفقيه العالم الصالح أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الأنفاسي ، خطيب « جامع الأندلس » وإمامه . انتفع به جماعة كثيرة في قراءة « المدونة » . قالوا : كان لا يقرئها إلا بابن يونس . وكان الغالب عليه المسكنة والديانة .

احتاج الناس فطلبوا منه الاستسقاء ، فوعدهم لثالث يوم . فلما كان من الغد أخرج ما عنده من الزرع فتصدق به ، وكان كثيراً . فلما كان من الغد رأيته يبكي في صحن الجامع ، وقال : « الآن أبكي كما يبكي المسلمون » . ثم استسقى . فما رجع الناس إلا بالمطر .

توفي — رحمة الله عليه — في سنة ستين وثمانمائة ، وقد طعن في السن . وصليت خلفه كثيراً .

ابن املال :

ثم الشيخ الفقيه الصدر الأجل العالم ، مفتي المسلمين ، أبو عبد الله محمد ، المعروف بابن املال .

كان متواضعاً ، حضرياً ، فقيهاً ، فهماً ، فخماً . ولي الفتيا بعد الشيخ أبي عبد الله القوري ، عند تأخيره أياماً . ثم مات ، فعادت إليه * .

وصليت خلفه « بمدرسة الحلفاويين » أياماً . وظهرت ولايته . وحضرت جنازته يوم مات سنة ست وخمسين وثمانمائة ، أو قبلها . ومات معه ، في ذلك اليوم ، الوزروالي ، فكان لهما مشهد عظيم . وذكروا أنه مات في

* أي أن الفتيا عادت إلى القوري بعد موت ابن املال .

« باب الفتوح » رجال بالازدحام للجنازة . وهومدفون تحت « حجرقطرب » من ناحية المشرق . وكذلك الأنفاسي في طرف « مطروح الجنة » في روضة اشترى أرضها . وترك ولداً لم تقر له بعد غيبته عبرة .

المغيلي :

ثم الشيخ العالم الفقيه القاضي العلم ، أبو علي الحسن بن منديل المغيلي .

كان إماماً « بالمدرسة العنانية » ، صليت خلفه بها الجمعة مرة وصليت غيرها مراراً . وحضرت مجلسه « بجامع القرويين » فحزرته بنحو من ثلاثة آلاف رجل . سمعته يقول : « من سنة ثلاث من هذه المائة* وأنا أقرئ » . وحضرته في « مسجد آمنة بنت السلطان » في تفسير سورة « والليل إذا يغشى » ، ولم أحفظ مما سمعت منه غير شيء يسير . . .

قالوا : وكان يحفظ الجزولي المسبع على « الرسالة » عن ظهر قلب . وكان يغلب نقله حتى يظهر أنه كان يزيد عليه . وكان بينه وبين القوري والمزهدي منافرة .

توفي — رحمه الله — في سنة أربع وستين وثمانمائة ، وقد كبرت سنه . ومات ،في هذه السنة سيدي عبد الرحمن القرموني ، وهو فقيه ومدرس من بيت علم ومؤقت « العنانية » .

العطّار :

ولقيت بهذا الطور جماعة من الفضلاء والصلحاء ، منهم : الأمين أبو عبد الله محمد ، المعروف بالعطار . وكان زوج خالتي من أصحابه . وكان يعتمد الأخبار بالوقائع كثيراً .

حدثني شيخنا أبو عبد الله بن زمام — وكان صاحبه — أنه قال له : « كنت عامياً عفيفاً صاحب همة وعزيمة ، ما سبقني للضيف أحد قط

* المائة الثامنة للهجرة .

بالمسجد . وكنت كلما جاءني ضيف أخذت من ثوبه خيطاً فجعلته في كبة كانت عندي من ذلك ، قد جعلتها في ذراعي مع الحرز . فلما كان ذات ليلة ألقيتها في النار ، فاحترق نصفها وبقي النصف الآخر تلعب عليه النار ولا تحرقه . فاضطرني ذلك إلى التوبة ، فتبت . وقلت في نفسي : ليس ثمة اليوم شيخ ظاهر في الأحياء ، وإذن فلاتخذ الشيخ عبد القادر (٩) والشيخ أبا يعزى (١٠) وسيلة إلى الله . ثم نظرت فإذا زيارة الشيخ عبد القادر غير ممكنة ، فأقمت عند قبر الشيخ أبي يعزى واحداً وعشرين يوماً ، أقوم الليل وأصوم النهار ، ولا أفتر عن الذكر . فنمت في آخر القائلة فإذا القبر قد انفتح وأتى رجل عليه عمامة كبيرة فوقف على صاحبه وقال : أعطه حاجته ! فقال : ما هي لي وحدي . فقال : اعطه ! فأعطاني علَماً . فاستيقظت مسروراً به . فإذا برجل مصمودي على باب المسجد يقول : هنيئاً بقضاء الحاجة ! فقمت في طلبه فلم أجده » .

ثم جرى حاله بعد ذلك .

عاينت من أمره أن زوج خالتي شكا إليه رجلاً جار عليه في حائط ادعى سقوطه ، وأخذ بذلك شبراً من داره . ثم عاود لنحو ذلك في موضع آخر . فقال له الشيخ : « إذا جاء للهدم فوجه وجهك لناحية الموضع الذي أنا فيه (وبينهما مسيرة يوم طويل) وناد : يا فلان » ! فلما أخذوا في الهدم قال — وأنا أنظر إليه . ثم خرجت للمكتب ، فما أتيت حتى وجدت دار ذلك الرجل كلها في الأرض . فسألت عن ذلك فقالوا : كان في الحائط خشبة مشتركة لما أرادوا زوالها انهدمت الدار . فلما جاء الشيخ أخبره فقال : « فعل الله ! » — وكانت هذه عبارة في الطلب أنه ما يبنيها — فكان كذلك ، وإنه لأمكن الناس ، وبنى في أعز موضع فصارت للأزبال من سنة ثلاث وخمسين أو نحوها إلى سنة ثلاث وسبعين ، ما قدر على بنائها ؛ لكونه كلما أراد البناء ، أصيب ببلية تصرفه عنها ، حتى مات . فاشتراها بعده خديم له وبناها .

ولقد لقيني يوماً وقال لي : « ما معنى الأولياء يظلمون الناس في أموالهم هكذا » ؟ فقلت ما مقتضاه : إنما هي مجازاة وعقوبة من الله تعالى .

ومما وقع لي ليلة أن دخل الدار فنظر إلي وللخادم وقال لي : « ما على هذه الخادم أكرمتك » . فوقع لي معها بعدُ ما يغفر الله من ضرب وغيره ، بسبب مزاحمتها في صعود الدرج . والله أعلم .

وكانت خاتمته أن رجلاً أندلسياً كان يدعى الشرف وأن أمه أسيرة كلمه يوماً أن يعينه بالكلام في فداء أمه ، فقال : « ما قنعت بالإسلام حتى ادعيت الشرف ، والأبعد نصراني جاسوس بأمارة كيت وكيت » . فخجل الرجل واستغفر . ثم بلغ الخبر الوزير علي بن يوسف (١١) ، فسأله ، فقال : « وافقته في أخباره مساعدة ليعينني في الأمر » . فعظم ذلك على الأمير وأغلظ القول على الشيخ ، وقال : « لا بد من حضوره حتى يختبر » . فجاءه الرسول بموضعه ، فقال : « أرجو الله أن لا يراني ولا أراه » . فأصبح الشيخ ميتاً من الغد . فتحدث ناس أنه قتل نفسه . فلما كان آخر تلك السنة أو نحوها وإذا بالرجل قد هرب إلى بعض سلاطين الأندلس ليفسدها ، فأدركوه بإزاء « سبتة »* ، فهرب ورجع أصحابه فتبين إخبار الشيخ بأنه كان جاسوساً بعد وفاته بسنة – رحمة الله عليه – وذلك سنة ثلاث وستين وثمانمائة ، أو نحوها .

الفيلالي :

ثم الشيخ الفقيه الصالح القدوة أبو العباس أحمد بن علي بن صالح ، المعروف بالفيلالي ، نزيل بني يوناتن .

كان ذا علم بلوازم الدين ، في سياسة وحسن معاشرة وملاقاة . وكان صديقاً لشيخنا أبي عبد الله القوري ، معظّماً عند الكافة ، ذا دين متين ويقين ثابت . لم أجتمع معه قط ، ولا رأيته على التعيين ، لكن أعرف

* في مخطوط تونس : فأدركوا بإزائه ستة .

وجوده وأسمع أخباره كثيراً . ولى مع أولاده بعض صحبة ومع بعضهم أخوّة ومجاورة .

وحدثني شيخنا أبو عبد الله القوري – رحمه الله – أن سيدي أحمد تكلم مع سيدي عمر* في أمر . فقال سيدي أحمد : « يلطف الله » ! فقال له سيدي عمر : « ومن قال لك يلطف » ؟ فقال : « ياسيدي ! حسن الظن بالله أولى من إساءة الظن به » .

وحدثني عن والده أنه كان يصلي بركن « جامع القرويين » ، فعمل فيه بعض الناس عقداً بذلك ، ثم أحضره القاضي فكلمه . فقال : « أنا مقرّ بفعل ما في هذا العقد » . قال : « ولم تفعل » ؟ قال : « أنا عارف بعلم النجوم . وقد أداني اجتهادي إلى أن القبلة في الموضع الذي أصلي به . وإن كان ثمة من يعرف شيئاً نتكلم معه ؛ فإما أن يرجع إليّ أو أرجع إليه » . قال له القاضي : « ما سمعت قول الناس : اخطئ مع الناس ولا تصب وحدك ؟ » قال : « كذلك قيل لأبي بكر (رضي الله عنه) حين أسلم وحده وأخطأ الناس كلهم » . فتركه القاضي وقال لأصحابه : « إلى هنا أبلغتمونا » ! أو ما في معنى هذا الكلام .

توفي – رحمه الله – سنة ستين ، أو سنة إحدى وستين ، وثمانمائة . ودفن بخارج « باب الفتوح » .

صاحب الظهر :

ثم الشيخ الصالح المتبرك به ، سيدي أبو زكريا ، يحيى صاحب الظهر – اسم موضع .

كان مشهوراً مشكوراً غائباً في عموم أوقاته ، يلبس ثياب خمول ويأكل طعام الظلمة – على أصل في ذلك – ويقضي منهم الحوائج ، ويخافونه لكونه مجاب الدعوة .

* يبدو أن « سيدي عمر » هذا هو أحد أبناء أحمد الفيلالي الذين كان لزروق « ببعضهم صحبة ومع بعضهم أخوة » .

سمعت أنه قال لعلي بن يوسف : « الله يتلف رأيك » ! فلم يستقم له رأي بعد . وسألت بعض شيوخنا مرة : « مالك وعلم البوني ؟ » * فقال : « رأيت سيدي يحيى ينظر فيه فأنكرت عليه ، فقال : ابتلاك الله به ! »

موت الجزولي :

وذكر خدمته لسيدي محمد بن عبد الله الزيتوني ، والانتظام في سلكه ، وما جرى له معه من خرق العوائد في أول حاله في خدمته ، فقال – نفعنا الله به : « دخول سنة سبعين وثمانمائة كنت في خدمة سيدي محمد بن عبد الله الشهير بالزيتوني ، فكان يعرّفني في الأمور . وعرض له في تعمير (زاوية بوقطوط) من داخل (باب الفتوح) . فتكلم مع الكاتب ومن في معناه من أصحاب السلطان أن يخرجوا له بها ظهيراً ، فأخرجوه وكنت بها خديماً للفقراء . فقدم علينا من تلامذة سيدي محمد الجزولي (١٢) جماعة مع الصغير السفياني ، وصححوا عندنا موت الشيخ الجزولي . قال الصغير : مات في صلاة الصبح ، إما في السجدة الثانية من الركعة الأولى أو في السجدة الأولى من الركعة الثانية .

عمر المغيطي :

قال : « وقلت له آخر تلك الليلة : أناس يذكرون فيك شأن الفاطمي (أو ما في معناه) فاخرج ؛ فقال : ما يدورون إلا ما يقطع رقابهم** . والله يسلط عليهم من يقطع رقابهم . كرر الدعاء مراراً ؛ فكان ظهور دعوته في عمر المغيطي(١٣) » .

بلغني ليلة أن الفقيه أبا عبد الله القوري جاءه سؤال في شأنه ، فبادر إليه وقال : « خرج من يدي » . قلت : « فما مقتضاه » ؟ قال : « مداره

---

* نسبة إلى أبي العباس أحمد بن علي البوني (ت . ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، صاحب « شمس المعارف الكبرى » وغيرها من المؤلفات التي تنحو نحواً خاصاً ظهر عند المتصوفة بتأثير غنوصي وسرياني يرى في الأرقام والحروف قوى سحرية خاصة ، وفي تركيب المواد سبيلا إلى الإكسير . ولئن كانت هذه النظرة بدأت رمزية صرفة ، فإنها – بعامل الجهل وسوء الفهم – سيطرت على الأذهان باعتبارها حقيقة ممكنة .

** أي « يبحثون عما يقطع رقابهم » .

على أنه يقول : أحكام القرآن والسنة ارتفعت ، ولم يبق إلا ما قابله قلبه عن ربه » .

وقد شاع من أمره أنه يقول إنه وارث النبوة ، وإن له أحكاماً تخصه كمثل قصة الخضر مع موسى (عليه السلام) ، وإن الخضرحي ونبي مرسل ، وإنه يلقاه ، بل ويدّعي ذلك من دونه من تلامذته .

وقال لي بعض أهل الصدق والعدالة في الأخبار : « رأيته في حياة الشيخ يأتيه بألواح مكتوب فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر ، فلا يقول له في ذلك شيئاً . غير أنه أثنى عليه في ذلك كثيراً ، فقال : جزاك الله عنا خيراً » .

وكان افتتاح أمره أن قام منتصراً للشيخ في الذين سمّوه ؛ إذ سمّه بعض الفقهاء * . ولم يزل بهم حتى قتلهم . ثم صار يدعو الناس لإقامة الصلاة ويقاتلهم عليها ، فنصره الله عليهم . ثم عاد يطلب المنكرين عليه وعلى أصحابه وشيخه ويسميهم « المجاحدين » ، ويسمى أصحابه « المـُريدين » — وما أحقهم بالفتح ** !

ولقد رأيت منهم أناساً ، فرأيت كذباً كثيراً ، ودعوى عريضة ، وجهلاً عظيماً . وحاصل أمرهم الشوشة في الرأس ، والسبحة في العنق ، والسيف في اليد ، والذكر في اللسان ، والخروج عن الحق في الأفعال . غير أن النقل عنهم اختلف اختلافاً بيّناً ؛ فالمبغض يكفرهم ، والمحب يطيرهم ، والجاهل يتحير ، والعالم لم يتحصل له ما يحكم به غير خروجه وخروجهم عن الحق (١٤) .

ثم أراح الله المسلمين منه قرب سنة تسعين وثمانمائة . وبقي ولده على حال لا عبرة بها في باطل ولا حق . وكان الذي قتله امرأته وربيبته . ثم لا حاجة لنا في أخباره ؛ فلنقتصر على ماذكر . والله أعلم .

الدقوف :

ولما كان آخر سنة سبعين زرنا الشيخ أبا يعزى ، مع الشيخ الزيتوني

---

* في مخطوط تونس : « قام منتصراً لشيخ في الدين سبوه : إذ سبه بعض الفقهاء » .
** أي فتح الميم ، فتصبح : « المَـريدين » — جمع « مريد » .

وجماعة من الفقراء . فظهر لنا من أسراره وأنواره وبركاته ما لا مزيد عليه .

وسافر معنا في هذه المرة الشيخ أبو عبد الله الدقون . وكان أمياً صادقاً مفتوحاً عليه ، بحيث يتكلم في التوحيد الخاص والعلوم الدقيقة ، ويأتي بما يرضي ويسر في ذلك . وكان لي حدة ، فكان إذا رآها مني قال : « أمهل حتى تجاوز الأربعين ؛ فإن هذا لا يبقى منه شيء » . وقد ذكرت بعض حاله مع الشيخ زمام – رحمه الله . توفي في سنة إحدى وسبعين وثمانمائة .

السر :

وفي ما وقع للشيخ الزيتوني أن قال : « عبدين سلطانين جديدين » * ! ثم استكتمني إياها ، وكتمتها . ثم إنه قال لي : « سمعتك تقولها لفلان » . فحلفت بكل يمين ، فلم يقبل مني . فلم أقدر على تكذيبه ، ولا صح عندي تصديقه ؛ لما أعلم من نفسي . فكنت أجوز أن الله ابتلاني بشيطان أسمعه ذلك (١٥) .

الخروج :

ثم ضاقت علي الأرض بما رحبت . فخرجت لزيارة سيدي أبي مدين (١٦) – وكنت أجد في زيارته نفس الرحمة وخطاب الحال .

الاتهام :

فأول خروجي من البلد قال رجل من البلد لآخر : « هذا من يهود فاس » . فشككه في ذلك ، فحلف بالصوم ، فسمعه طالب يعرفنا ، فنازعهما .

ثم لما كان الليل دخلنا ** مسجداً ، بعد صلاة المغرب ، لنبيت فيه .

* هكذا في المخطوطين . ولعله يعني اليهوديين ؛ هارون وشاول اللذين وليا أمر الضرائب وجباية المكوس في أواخر أيام السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني . (راجع التعليق رقم ٥) .

** الحديث هنا بالجمع لأن زروقاً لم يكن خرج وحده من فاس – فيما يبدو – بل كان له رفيق سيذكره بعد قليل ، وإن لم يعين اسمه ، فارقه بعد ذلك .

فإذا أصحابه يتحدثون بنا ، معتقدين أنا يهود . فإذا بشيخ منهم يعرفنا ، وقال : « هذا طالب أعرفه من فاس » .

ثم لما أتينا بادساً مسكونا لنرد الخبر على أميرها . فنحن عند باب القصبة فإذا بعبدين خرجا ، فبصقا علينا ولعنانا ، اعتقاداً منهما أنا يهود ، فانتهرهما الناس .

وبينما أنا أمشي في حجارة يوماً إذا برجل يقول لي : « خدمتهم* اليوم يا يهودي » ! فانتهرته ، فاستغفر .

وأتينا « دار ابن مشعل » — أنا وصاحبي — فتركني أسفل الوادي ومشى . وأردت الطلوع إلى الدار فزُيِّن لي أن الطريق الأيسر أقرب ؛ فمشيت فيه ، وفيه ديار اليهود . فلما رأوني قالوا : « هذا ولد شيخ تازا »** وكانوا سمعوا أنه هرب خوفاً من الأخذ . فبعثوا ولد شيخهم للاقاني . فلما رآني قال : « كأنه ما هو اشي ! » ثم عقبني*** . ومشيت بين ديارهم فإذا هم على الأبواب ، ذكوراً وإناثاً ، كباراً وصغاراً . فما راعهم إلا دخولي المسجد ؛ فقامت عندهم ضجة وكلام .

وبقيت [في المسجد] أياماً . ثم قنطت ورمت الرجوع ، فوجدت فارساً وراجلاً ، فنزلت معهما إلى « وادي ملوية » . فلما قطعنا الوادي قال الفارس : « والله ما تجوز إلا بالغفر » . فأخذ نصف مصحف كان عندي ، وأرسلني حتى عدت لفقير بتنا عنده ونحن مصعدون ، وكان جديد التوبة صادقاً حسن الحال . فبقيت هناك أياماً بجرح أصابني في رجلي . فرأيت الشيخ [الزيتوني] في النوم وهو يقول : « أنت مسجون أربعين يوماً » !

العم موسى واخطار الطريق :

ثم يسر الله لي السفر ثانية مع قافلة . فلما أتيت لبعض الأودية إذا به

* هكذا . ولعلها « خدعتهم » .
** شيخ تازا = ربي تازا .
*** ما هو اشي = ليس هو . عقبني : خلفني وتركني ذاهباً عني .

حامل لم نقدر على جوازه . فتحاملت ، أنا ورجل آخر معي ، ومشينا إلي أن وصلنا « أغيال » . فقال لنا بعض الناس : « تقدموا الليلة باتوا عند رجل يقال له (عم موسى) فإنه جيد » . فأتيناه عشية ، فإذا أولاده يتجارون إلينا فرحاً بالضيفان ؛ لكونه وصاهم بذلك وجعل لنسائه أن التي عندها الضيفان يبيت عندها . فإذا هو شيخ قصير قليل موسخ الأطراف ، كأنه ما صلّى قط ! فرحب بنا غايةً وأكرمنا .

القتلة :

فلما كان الغد بعث معنا شاباً وأوصاه بنا . فما نزلنا بطن الوادي حتى وجدنا ثمانية رجال . وإذا بهم يكلمون صاحبنا بالرطانة وهو يهز مزراقه ويحلف . فبان لنا من الأمر أنهم قالوا : « هذا أندروشي ، ولنا على أندروشة روح ؛ فنحن نقتله ولك سلبه » . فقال : « والله لا أسلمه حتى أموت ! أعطاه لي عمي موسى وأفرط فيه » ؟! فلم يقدروا عليه بشيء .

ومشينا عنهم حتى أتينا قرية ، فإذا هم قد سبقونا إليها . فوصلت للرجل الذي أوصاه عمه موسى ، فإذا بهم جاءوا يتنازعون وقالوا : « لا نسلم حتى نرى من يشهد أنه فاسي » . وذكروا عجوزاً عندهم قريبة العهد بفاس . فأتيناها وتعرفت عليها ، فذكرت أنها تعرف أمي ووالدي بفاس ، وسألتني عن ابنها . وسألتني الجماعة عن صفته فخيلت لي صورة ، فكنت أنظر فيها وأنعته حتى اجتاز إنسان على صفة ما رأيت فقلت : « شبيه بهذا الرجل » . فصدقوني بعض تصديق .

الأمن الكلي :

وقال لي الرجل الذي كنت عنده : « إن لم يعرفك سيدي يوسف (لرجل صالح كان عندهم) فلا خلاص لك » . فجلست في المسجد مع الناس ، وإذا بالرجل المذكور قد جاء . فما تمالك أن ترامى علي مسلّماً ؛ فحصل الأمن الكلي . وكان هناك سفهاء القبيل كلهم لحضور « خطيّة »

بينهم ، فعرفوني وأكرموني غاية الإكرام . ووصّلوني إلى « أندروشة » . وكان الناس يتعجبون من أمري .

تحقق الحلم :

ثم مضيت إلى « تلمسان » . فوصلت يوم تاسع وثلاثين تاريخ الخروج من « فاس » . فقلت : « اليوم أزور الشيخ أبا مدين » . فلم أقدر على ذلك إلا من الغد ، بقية الأربعين يوماً المذكورة في الرؤيا . فزرته ، وفتح الله بما فتح .

فوت القافلة :

وأتيت الشيخ سيدي أحمد بن الحسن الغماري أودعه ، فلم يتركني أخرج من عنده حتى كان الظهر . فلما خرجت من عنده قيل لي إن قافلة خرجت قريباً . فخرجت ، فلم أدركها . ومشيت وحدي اليوم الأول والثاني .

الباحث عن الكيمياء :

وأتيت « أغيال » ، فوقفت عند خراز ، وإذا برجل قائم يتكلم مع صاحبه . ففهمت أنهما أرادا المكربي في قطع الطريق . وإذا برجل قد جاء وقال : « هذان يتكلمان وهما يريدان سلبك . فتعال لتبيت عندي الليلة ، وأنا أوصلك لمأمنك — إن شاء الله » ! فبت عنده ، فإذا به يبحث عن الكيمياء ، فلم يجد عندي شيئاً (١٧) . غير أني حاسنته حتى انصرفت من الغد .

الغرق :

وسرت مع سبعة شبان من أهل « كنداسة » . فمروا بي حتى أتينا طرف « ملوية » آخر النهار ، فإذا بها تزيد . فدخلتها وهي إلى السرة . فلما توسطناها زادت ، فما خرجت منها حتى رفعتني . فأخذني رجلان ، بعضدي ، وألقياني في الساحل .

الخوف :

ثم أتينا « زاوية تمدروست » فقالوا لي : « جاسوس النصارى ! » فتكلم معهم أصحابي بالرطانة وضمنوني . ومشيت معهم في « أبي خندق » — وهي مائة خندق وخندق — يقطع فيها النصارى والأسد والبربر . فلما وصلت وسطها قالوا : « أودعناك الله . هذه طريقك » !

قاطع الطريق :

فصعدت إلى الجبل ، ومشيت وحدي حتى كان العصر . فخرجت وإذا برجل في يده مقرعة كبيرة . فلما رآني جلس كأنه يبول . فقصدته ، وإذا به قائم ، وقال : « من أين جئت ؟ » — ومد يده لبرنسي فأخذه . ثم مشى به يسيراً ، وإذا به يناديني ويقول : « خذ برنسك ، بيني وبينك الله . ما هي عنايتك حتى تمشي وحدك » ؟ قلت : « الله عز وجل » ! فأخذته . ثم مشى ، فإذا به يعرج وما كان به قبل ذلك شيء .

الخائن :

ثم مشيت حتى أتيت غديراً يقال له « جب الكريمة » . وإذا عليه نساء يسقين وحولهن شاب راكب على حصان أحمر . فعزم علي في المبيت — وكان من عادتي أن لا أتعدى من يعزمني في أي وقت — فبت عنده . وإذا بابن عم له يقول : « حاجتي في الموضع الفلاني ؛ فإذن أمضي مع هذا الرجل حتى أوصله » . وكان ذلك مكراً وحيلة .

فلما كان نصف الليل نبهني . ومشيت معه . فكان يمشي ويتوقف ، ويخرج عن الطريق ، حتى طلع النهار علينا . فإذا وجهه تارة يسودّ وتارة يصفرّ وتارة يتغير لغير ذلك ، حتى انتهينا لحفرة كبيرة بين كذا . فوقف وقال لي : « هات لي إن كان معك شيء ؛ فما جئت بك إلا لآخذ منك شيئاً » . قلت : « والله ما عندي شيء » ! ففتشني من كل ناحية ، ثم إنه أخذ برنسي وقال : هذا نأخذه تاوة * ! » فقلت : « لا . إلا نهباً

* تاوة = الآن ، في الحال .

حراماً » . فراودني كثيراً فقلت : « أنت أخذته . فانصرف وخلٍّ عنك هذا الكلام » . فانصرف عني ونعت لي طريقاً متلفاً .

أين برنسك ؟!

فما زلت أمشي حتى وجدت الطريق . وأشرفت على دور أصحابي وإذا بالمرأة تقول : « أين برنسك ؟ يخلى خيمتك » ! فقلت : « أخذه ذوو فلان » . فجاء زوجها الفقيه أحمد بن خليفة الأسجعي ، وكان آمياً قريب العهد بالتوبة ، فإذا هو يبكي ويمسح بسبحته على وجهه ويقول : « جاد الله ! من أخوه في الجنان ما يخباه في الفدان ! ذوو فلان ما هم قدّ هذا . . لا بذى ولا بذى » ! (١٨) .

امسكوه ! :

فلما كان من الغد مشينا حتى أتينا الخيام التي بتُّ فيها ، فإذا هم قد خرجوا لما رأونا . فعرف منهم رجلاً ، فقال له : « يا مالك ! يبيت عندكم ، وذكر أنه جاء لي ، فخانه صاحبكم ولم يراع ذمة العرب في مبيته عندكم ولا في أنه جاء لي ولا أنه من أهل الله ، يمشي وحده بعناية الله » ؟ !

ثم قال : « الذي أخذ برنسك في هؤلاء ؟ » قلت : « لا » . قال : « من الذي بيّتك » ؟ قلت : « هو ذا » . قال : « ائتوني بمنجل » . فدسّه في النار حتى صار أبيض ، فكلما حمي عليه والرجل يهرب . فقال : « امسكوه ! لا يركب رأسه الخلاء » ! فجاءوا به وهو يرعد . فأخذ المنجل وجـر إبهامه عليه وشمّمه له ، فإذا بـه يرتعش ، وطـاح كالأرزة لا روح فيه . قال : « أين والـده » ؟ فإذا بشيخ كبير قد جـاء يرعد . قال له : « ما اسمك » ؟ قال : « سعيد » . قال : « يا عم سعيد ! قيّم ولدك . أنا مشيت » . وقصد فرسه للركوب ، فردوه بالدخيل . فحلف لا قام من ثَمَّ حتى يرجع البرنس أو رهنه ، ويعطى عشرة دنانير ذهباً خطية . فأتوه برهن الجميع . فأخذ قضيباً وصار يضرب به ويتكلم شبه معزم — وما هو به . فرأيته يقوم ثم يطيح على قمة رأسه مراراً . ثم أوقفه بين يديه وقال : « تتوب إلى الله ، ولا بقيت تفعل مثل هذا ؟ » قال : « نعم . أنا تائب إليه » . فأخذنا الرهن وانصرفنا .

ثم سافرت من عنده فكتب بعدُ بوصول ذلك إليه (١٩) .

آه !!

ولما أتيت بلاد « مطالسة » فارقني الرفيق . وبينما أنا أمشي وإذا برجلين يجريان نحوي ، أحدهما منكر الوجه عاد لصاحبه ، ثم قال لي صاحبه : « من أين أتيت » ؟ قلت : « أتيت من تلمسان » . قال : « وحدك » ؟ قلت : « نعم » . قال : « ما تخاف » ؟ قلت : « مم » ؟ قال : « من السبع » . قلت : « لا » . قال : « من الرجال » . قلت : « يسهل الله فيهم » . قال : « ما أشد هذا الطالب » ! قال [صاحبه] : « آه » ! ثم انصرفا .

الكرامة :

فجئت موضعاً يقال له « تميولة » عند القائلة ، فإذا بدوار عزموني فنزلت ، فإذا عندهم لحم ضربوب * ، وأنا ما أكلته قط . وأطعموني منه فما قدرت عليه . وخفت أن يتهموني باليهودية ؛ فتحاملت على أكله . فأصابني عصار من الغد ، وإسهال ، حتى تلوثت ثيابي ، فتحيرت من بَلّ النجاسة . فبينما أنا أمشي إذ وقعت على غابة وماء غسلت فيه وتنظفت . ثم ذكرت ذلك لبعض الناس فقال : « ما هناك غابة » . فنازعته ، فقال : « إنما هي منة من الله تعالى وإيناس لك » . ثم جزت في ذلك الموضع بعدُ مراراً فلم أجد فيه أثراً لذلك ، ولا حواليه . فسبحان الرحيم الكريم !

البخيل :

وكانوا دلوني على رجل صالح عندهم قصدت زيارته . فلما دخلت أخذ يعتذر لي بموت زوجته وقلة الخديم . فقلت : « يا رجل ! إنما جئت زائراً » . فاستمر على حاله . فتركته وانصرفت ، فناداني ، فحلفت أن لا أرجع .

---

* لحم ضربوب – هكذا واضح في النسختين . ولم أعثر على معناه ، اللهم إلا أن يكون نسبة إلى الضوارب ، وهي النوق الممتنعة عن فحولها وعن حلبها بعد اللقاح – كما جاء في « لسان العرب » .

لا مَن يُصلي وَلا مَن يكبّر :

ومررت فإذا أنا بقوم مدرَّعين ، كلمني منهم رجل واحد وقال : « تمشي وحدك » ؟ قلت : « معي الله الواحد القهار » . فلم يزدني كلمة .

فلما كان الاصفرار وأيقنت بالليل أخذت أطلب موضعاً آوي إليه . فإذا أنا بحجر كبير كأنه مغارة قصدت إليه ، وإذا برجل يصلي فوق كدية عالية . فبادرت إليه ، فلم أجد أحداً . وأشرفت على وادٍ يجري ماؤه وفيه صبيّان يسوقان غنماً . فلما وصلت إليهما فرحا بي ، وسألتهما عن الرجل الذي يصلي فوق الكدية فقالا : « والله ما هنا من يصلي ولا من يكبر ! » ثم مشينا إلى العشاء بأهلهما ، وبتنا على خير المبيت .

تهمة الجوسسة :

ثم انصرفت من الغد ، فأتيت « مكناسة » . فلما رأوني قاموا إلي وقالوا : « جاسوس صاحب فاس عند صاحب تلمسان » (٢٠) . فأخذوا حويجاتي . ثم إنهم اختبروني فلم يجدوا شيئاً مما توهموه . وتعرفوا خبري قبلُ من رجل صاحب لي نوع تاجر ، وسألوني عنه وقالوا : « هو الذي أوصانا عليه فلان » . فنجاني الله منهم . وبت في « زاوية سيدي ادريس » في ليلة مطيرة ، ولم أعرف أين القبلة ؛ فأخطأتها .

القطاع :

ثم أصبحت من الغد . وبينما أنا أمشي إذ خرجت علي جماعة من الطلبة ، فكلمني واحد منهم ثم رجع إلى مكانه ولم يأتني غيره . وأخبرت بعدُ أنه كان فيهم طالب ممن قرأ علي فأخبرهم بشأني — وإلا فهم قُطّاع .

العرس :

ثم أتيت موضعاً يقال له « أكيوان » وجدت به عرساً ، فدلوني على دار العرس لأتعشى . فوقفت على الباب حتى اشمأزت نفسي ، ولم أقدر على السؤال . ثم انصرفت فجزت على الجماعة وهم يريدون الدخول على

الطعام . وما عرفني أحد منهم . فدلوني على المسجد فأتيته ، وإذا بالصبيان قد اجتمعوا فيه يريدون دار العرس . فحملوني معهم وأجلسوني في أعز موضع . وأطعموني من أطيب ما أكلوه ، ثم صرفوني إلى المسجد . وكان المطر . والمسجد عتيق ، فبقيت الليل كله خائفاً من سقوطه ؛ أو شيء منه ؛ عليّ إلى الصباح .

فقيه :

فلما صليت الصبح إذا أناس في ناحية المسجد يتكلمون في أحكام الوضوء والصلاة . ثم قالوا لي : « أتعرف شيئاً من هذا » ؟ فأظهرت لهم بعد ذلك فقالوا : « فقيه » ! ثم عادوا إلى أنفسهم وقالوا : « ما يمشي هذا وحده إلا أنه رجل صالح » . فتغيرت من مقالتهم ثلاث مرات في وقت واحد .

الخيال :

ثم خرجت من عندهم من الغد ، فكنت أمشي في الطريق ولم أجد إلا أثر السبع والذئب ، حتى قطعت « وادي المقرمدة » ، فإذا بشيء عرض لي لا أدري ماهو . غير أني رأيت شخصاً قائماً لم أتبينه ؛ فأسرعت إليه فلم أجده . فتعوذت من الشيطان ومضيت .

ثم مشيت حتى كان قرب العصر ، فأتيت موضعاً يقال له « دار يونس » فوجدتها خالية . ودخلت في بيوتها فسمعت حس الدجاج في المطامير . وعزمت على المبيت هناك . فألقى الله في أذني أصواتاً كثيرة استوحشتها ، ثم مشيت لناحيتها فإذا أصوات بين « الحجار » وبينها أميال .

عودة البرنس :

ومشيت فلقيت في طريقي رجلين من « الشاوية » . وإذا أحدهما في يده برنسي وبين يدي أحدهما كساء ملوث بالدم ، إما قتلوا صاحبه أو جرحوه . ثم تناهوا بينهم وردّوا لي برنسي . وخرج علي جيش كبير .

فكلموني ثم تركوني . وقال إنسان منهم : « حاج أنت » ؟ قلت : « لا » . قال : « غاز » ؟ قلت : « لا » . قال : « تقرأ شيئاً من القرآن » ؟ قلت : « الكل » . قال : « آه » !

الحيرة :

وأتيت « بئر الحجار » وإذا الناس قد انحصروا فيه . فبقيت في المسجد إلى الليل . ولم أعرف الزاوية ، ولا عشاني أحد . حتى كان بعد العشاء بكثير وإذا بإنسان يناديني . فخرجت إليه ، فحملني إلى بيته وأخبرني بحاله وكاشفني بأمور وقعت لي .

السلطان :

ثم انصرفت من عنده في الغد . فلقيت السلطان في الطريق مسافراً ، فكلمني بعض أصحابه في الوصول إليه ليسألني عما ورائي ، فقلت : « أنا أخبرك وأخبره أنت » . فكان كذلك (٢١) .

العود أحمد :

ودخلت المدينة * عند الضحى ، فوجدت الشيخ ** مريضاً . وأخبرني الأصحاب عن رجل هناك كان يحسدني أنه قال : « ما زلت أدعو على فلان حتى نفي فلا يرجع أبداً ، وعلى هذا حتى مرض فلا يقوم من مرضه » . فشفى الله الشيخ مع قدومي . وقال لي : « إذهب إليه وقل له : أنت تريد مكة . والله ما تراها أبداً » . ففعلت . فما كان إلا أيام قليلة حتى مات ، بعد أن هيأ أسباب سفر الحج مرة أو مرتين . نسأل الله العافية ! »

* * *

* مدينة فاس .

** الشيخ محمد الزيتوني .

إلى هنا ينتهي ما سجله زروق عن ترجمته الذاتية . وهو ينتقل فجأة — ودون مقدمات — إلى الحديث عن بعض شيوخه الذين درس على أيديهم مختلف العلوم الإسلامية — هكذا :

« وممن لقيت بمصر الشيخ نور الدين التنسي . حضرت مجلسه وقرأت عليه بعض شيء . وكان حسن التقرير ، قوي الفهم ، عظيم الإنصاف ، حميد الأوصاف . توفي في سنة خمس وسبعين [وثمانمائة] وأنا إذ ذاك بالحجاز .

والشيخ نور الدين السنهوري ؛ ضرير ، حافظ للفقه ، عارف بالنحو والأصول . له شرحان على « الأجرومية » وشرح على « المختصر » — وهو الآن في تصنيفه . قرأت عليه أول « المختصر » إلى (سجود التلاوة) ، في سنة خمس وسبعين وثمانمائة .

والشيخ شمس الدين الجوهري ، الشافعي المذهب . فقيه ، نحوي ، أصولي . له شرح على « الشذور » لابن هشام وشرح « التنبيه » . أخذ على المحلي ، وقرأت عليه بعض كتب المحلي . توفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة » .

ثم ينقطع الخيط مرة أخرى ، ليبدأ منحىً آخر يسرد فيه الكتب التي قرأها في مصر — كما يبدو — على أيدي أشياخه فيها . وهذه الكتب هي :

١ — الأحكام الصغرى — لابن عبد الحق .

٢ — رسالة القشيري — لعبد الكريم بن هوازن القشيري .

٣ — كتب ابن عطاء الله السكندري ، وهي :

(أ) الحكم .

(ب) التنوير .

(ج) لطائف المنن .

(د) تاج العروس .

(هـ) مفتاح الفلاح .

(و) رسائل كتبها لأصحابه .

٤ – مؤلفات ابن أبي جمرة .

٥ – المدخل – لابن الحاج ، وسائر مصنفاته .

٦ – كتب السهروردي ، شهاب الدين أبي حفص عمر – عوارف المعارف وغيره .

٧ – صحيح البخاري .

٨ – إحياء علوم الدين – لأبي حامد الغزالي .

٩ – كتب الحارث المحاسبي .

١٠ – قوت القلوب – لأبي طالب المكي .



تذييلات

١ – في مخطوط تونس تكنى جدة زروق « أم الخير » . والواقع أن كنية « أم البنين » أصح وأوثق . وقد انتشرت هذه الكنية التي كانت تطلق على من يسمين « فاطمة » في المغرب تيمناً بأم البنين فاطمة بنت عبد الله الفهري التي أنشأت « جامع القرويين » المشهور بفاس سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

٢ – يذكر أحمد بن خالد الناصري ،في كتابه « الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى » جزء ٤ – ص ١٠١ من جملة ما يذكره عن حوادث سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م أن وباءً رهيباً ضرب مدينة فاس في تلك السنة عرف « بوباء عزونة » ويبدو جلياً أن وفاة والد زروق ووالدته وجده من قبل ، في ظرف مدة لا تتجاوز أسبوعين من الزمان ، كانت نتيجة لهذا الوباء .

٣ – يقرر زروق هنا أنه تزوج خمساً من النساء . غير أننا لا نعرف منهن سوى زوجتين اثنتين ؛ الأولى فاطمة الزلاعية ، وكانت من فاس ، وحملت له ولدين . والثانية أمة الجليل بنت أحمد بن زكريا الغلباني المصراتي ، وجاءت منه بولدين وابنة واحدة .

٤ – من الطريف هنا أن يذكر زروق سبب تمسكه باسم « أحمد » – اسم والده – بعد أن أسماه « محمداً » . وهو يعلل هذا التمسك بالأسباب الثلاثة التي يوضحها . والحق أنه مصيب في إشارته إلى تحريف العامة لاسم « محمد » (راجع : E. Westermarck في مؤلفه Ritual and Beliefin Morscco; Macmillan, London,1926p.407 حيث يعدّد تسع طرق لنطق اسم « محمد » بينما لا يحصي سوى ثلاثة لتحريف اسم « أحمد » .

ويبدو أن ثمة علاقة نفسية خاصة بالشيخ في هذا الباب . فنراه

لا يكتفي بالتمسك باسم « أحمد » هو ذاته ، بل يطلقه على أولاده الأربعة الذكور ، ويميز كلاً منهم بكنية : أحمد الأكبر ، وأحمد الأصغر – ولداه من فاطمة الزلاعية . ثم أحمد أبو الفضل وأحمد أبو الفتح ، ابناه من أمه الجليل المصراتية .

٥ – حدث هذا في أيام عبد الحق بن أبي سعيد الزناتي المريني آخر سلاطين الدولة المرينية في المغرب ، وكان يواجه متاعب جمة ، داخلية وخارجية معاً .

أما عن فتنة اليهود فإن لذلك قصة يرويها صاحب « الاستقصا » (جزء ٤ – ص ٩٥ وما بعدها) ويحللها محمد بنشقرون في كتابه « مظاهر الثقافة المغربية » ص ٣٨ – ٤٣ .

فقد تم في تلك الفترة من التاريخ – أو كاد – إخراج المسلمين ، ومعهم اليهود ، من الأندلس . وكان طبيعياً أن يلجأوا إلى المغرب جميعهم . وعلى مر الأيام تمكن اليهود من التغلغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية هناك . وكان تسامح المسلمين عاملاً كبيراً في نفوذ اليهود الواضح آنذاك . وكان لهم لدى سلاطين بني مرين حظوة كبيرة .

وكان بنو وطاس وزراء الدولة وحجابها . وقد عظم نفوذهم وازداد حتى كاد يغلب على سطوة السلطان نفسه . وكان الوزير أبو زكريا يحيى الوطاسي يتهيأ – فيما يبدو – للوثوب على الحكم وإطاحة السلطان عبد الحق بعد ما رأى من تردي الأحوال في أيامه وبوادر انهيار حكمه . غير أن عبد الحق كان الأسبق في الضربة . إذ وثب فجأة على الوطاسيين ودبر مذبحة أتت عليهم سوى أخوين للوزير تمكنا من الفرار والنجاة . ولما كان للوزير أنصاره ومؤيدوه فقد ثارت الناس وانحاز كثير منهم إلى محمد الوطاسي أخي الوزير المقتول ، الذي اتخذ من « أصيلة » مركزاً لتحركه ضد السلطان .

وكان رد فعل عبد الحق ، إظهاراً لسخطه وإبرازاً لنقمته ،

أن أقسم أن لا يعين أحداً من المسلمين وزيراً له أبداً . ثم عمد إلى تنصيب يهوديين ، يدعى أحدهما هارون والآخـــر شاول ، مساعدين له ، مطلقاً أيديهما في الحكم وتدبير أمور الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بجمع المال والضرائب . وكانت النتيجة أن ازداد غضب الشعب وحنقه وثارت ثائرة المسلمين امتعاضاً من أن يحكمهم غير مسلم — كما يقول الناصري .

في تلك الآونة ذاتها خرج عبد الحق من مقر حكمه فاس على رأس حملة لقمع ثورة قبائل الهبط خارجها . فانتهز القوم الفرصة ، وأعلنوا العصيان يقودهم الشيخ أبو فارس الورياغلي (مفتي فاس يومها وأحد شيوخ زروق) وخلعوا السلطان في غيبته وأعلنوا عبد الله الحفيد سلطاناً بدلاً منه . وحين عاد عبد الحق لاسترجاع ملكه مع جنده تقدم منه اثنان من الجنود وقتلاه استهجاناً لفعلته في تقديم اليهود على المسلمين . وانتهت بهذا الدولة المرينية .

ولعل ما يرويه زروق من أحداث كان نتيجة طبيعية لاضطراب تلك الفترة واختلاط الأمور فيها .

٦ — يجعل زروق من والده أول من عرف في هذا الطور من حياته . . وواضح أنه هنا يقصد العلماء والشيوخ . وهذه المعرفة هنا مجازية بالطبع ؛ فإن والده توفي — كما يقرر هو — في اليوم السادس بعد ولادته . لكن من المهم هنا الإشارة إلى ما يذكره الأستاذ عبد الله كنون في كتيبه عن أحمد زروق في سلسلته « ذكريات مشاهير رجال المغرب » من أن أحمد زروق (الوالد) ربما كان من عامة الناس ولم يكن أحد العلماء وإلا « لوقعت الإشارة إلى ذلك في ترجمة ابنه » .

ويذهب الأستاذ كنون إلى أن الشيخ زروق ولد في قرية تليوان ، بالقرب من تازة — وليس في فاس . وهو الوحيد الذي يرى هذا

الرأي . ثم يقرر أن ثمة مسجداً وقبراً يزار يقال إنه قبر والد الشيخ ، ويسمى المسجد باسمه .

وإذا كانت مسألة مولد زروق قد نوقشت في موطن آخر (*) فإن المهم هنا التأكيد على ما أثبته الولد عن الوالد واستخلاص وجه الحق فيه . وعندي أنه من المستحيل في أسرة هذا شأنها ، تكون الجدة والخالة والصديقة فيها فقيهات فاضلات ، ناهيك بالرجال فيها ، أن يكون والد الشيخ من « عامة الناس » . ومن المرجح بعد هذا القول إن الوالد كان من أهل العلم وطلابه وإنه كان معروفاً بين أهله بذلك . ولعل وفاته في تلك السن المبكرة هي التي منعته من أن يترك آثاراً من بعده تدل عليه ، أو لعله ترك شيئاً غطت عليه الأحداث والسنون .

وإن في مجرد اعتراف قبيلته به ، وبناء قبر له ومسجد باسمه ، في موطن البرانس ، لتأكيد لما أثبته الابن من بعد من أن الوالد كان أول من عرفه في الطور الأول من حياته ، وإن كان لم يتحدث عنه طويلاً إلا حديث وفاته ووصيته .

٧ ـ السلطان المقصود هو عبد الحق المريني السابق ذكره . ويقول الناصري عنه إن « أمه علجية أصبنيولية . وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جداً وتداعى إلى الانحلال ، وكان التصرف للوزراء والحجاب » .

٨ ـ أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عمر أبو زيان الوطاسي وزير عبد الحق المريني ، وكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة . وهو الذي اغتاله عبد الحق مع أسرته .

٩ ـ عبد القادر الجيلاني ، ابن موسى بن عبد الله الجيلي أو الكيلاني . مؤسس الطريقة القادرية ولد في جيلان سنة ٤٨٨ هـ . وتوفي في بغداد سنة ٥٦١ هـ . كان فقيهاً أديباً عالماً محدثاً إلى جانب كونه صوفياً . له عدة مؤلفات .

١٠ ـ عبد الرحمن أبو يعزا يلنور (ت . سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م) أحد مشاهير

* انظر مؤلف المحقق المشار اليه فيما سبق .

أولياء المغرب ، وتروى عنه كرامات كثيرة ، وقبره مزار معلوم ، كان زاهداً شديد الزهد ، وهو أستاذ أبي مدين شعيب دفين تلمسان .

١١ – علي بن يوسف الوطاسي . ولي الوزارة لعبد الحق المريني من سنة ٨٥٢ – ٨٦٣ هـ . « وكانت أيامه أيام مواسم ؛ لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية ، مع العدل وحسن الإدارة » – الاستقصاء – جـ ٤ – ص ٩٦ .

١٢ – أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي ، صاحب « دلائل الخيرات » (ت ٨٧٠ هـ) – صاحب الطريقة الجزولية المنسوبة إليه وأحد كبار الصوفية في المغرب .

١٣ – يقول الناصري في « الاستقصاء » إن اسم الرجل هو : عمر بن سليمان الشيظمي المغيطي ، المعروف بالسياف ويقال له « المُريد » – بضم الميم .

وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ الجزولي . فلما سُمَّ الشيخ الجزولي ومات سنة ٨٧٠ هـ . ثار عمر السياف مظهراً الطلب بثأر الشيخ والانتقام من الذين سموه من الفقهاء . ثم ينقل عن زروق ما جاء في « الكناش » بشأن المغيطي هذا .

ويمضي الناصري ليذكر أن أمر المغيطي استفحل جداً . وكان جعل شلو الشيخ الجزولي في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني إسرائيل ، ولم يدفنه ، بل كان – إذا رجع من حربه – وضع التابوت في روضة عنده يسميها « الرباط » . فإذا جنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ، ويوقد كل ليلة عليه فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مُدَّين من الزيت ليقوى الضوء وينتشر ، فيكشف الطرق ومن يأتي عليها ، مخافة أن يؤخذ منه التابوت فينتصر عليه به .

وقد استمرت فتنة عمر السياف عشرين سنة ، حتى قتل سنة ٨٩٠ هـ . على يـــد زوجته (وكانت زوجة أستـــاذه الجزولي) وربيبته – ابنة الجزولي أيضاً .

١٤ — إن قصة عمر المغيطي السياف التي أوردها زروق مثل حي على ما كان عليه حال التصوف يومذاك ؛ إذ تحول من وسيلة للمعرفة الذوقية الخالصة إلى أداة للزعامة السياسية ، باجتذاب الاتباع وحشد المؤيدين وتسخيرهم لخدمة الغايات الشخصية . وهذا ما جعل زروقاً يرفض هذا الاتجاه في مؤلفاته الأخرى ، ويورد حديث المغيطي الذي عاصره مبيناً حال أصحابه ، وأنهم ليسوا من التصوف في شيء بل هم مجرد مُدَّعين جهلة « حاصل أمرهم الشوشة في الرأس ، والسبحة في العنق ، والسيف في اليد ، والذكر في اللسان ، والخروج عن الحق في الأفعال » !

وهو يهاجم أتباع المغيطي — وغيرهم — مرات عديدة في « عدة المريد الصادق » وينكر على أدعياء التصوف انحرافهم عن جادة الصواب ، ويحذر من البدع والمنكرات التي أحاطت بالفكر الصوفي حتى تحول إلى دروشة وخيال وجماعات تنهق خلف كل ناهق وتتبع كل ناهق — حسب تعبيره .

١٥ — هنا تبدأ سياحة زروق الأولى التي استمرت أربعين يوماً ما بين فاس وتلمسان . وهو هنا يسجل ما رآه في رحلته تلك وهو يقصد زيارة الشيخ أبي مدين شعيب . وفي هذه المرحلة تتشابك الأمور وتختلط المسائل . فهو لا يذكر شيئاً كثيراً عن أسباب خروجه من فاس سوى عتاب شيخه الزيتوني له لإفشائه سراً استودعه إياه وإنكار زروق أنه أفشاه . غير أن سياق الحديث الذي يتردد فيه كثيراً أنه اتهم بكونه يهودياً ، أو بأنه جاسوس يخفي في جوانبه ناحية مهمة من حياة الشيخ لا يزال يحوطها الغموض .

ويبدو أن زروقاً كان متورطاً في موقف سياسي معين أجبره على الخروج من فاس في تلك الفترة المضطربة من تاريخ المغرب ، حيث تداعت دولة المرينيين وجاءت دولة الوطاسيين ، وقامت فتنة اليهود ، واشترك الشيوخ والعلماء في ثورة عارمة ضد السلطان ، وكانت قبائل الشاوية والهبط تغير على المدن والعواصم وتعيث فيها

فساداً ، ويستفحل أمر المتمردين من أمثال عمر السياف وأضرابه ، ويهجم نصارى البرتغال والأسبان على ثغور المغرب انتقاماً من المسلمين الذين دالت دولتهم في الأندلس يومذاك .

والتفسير الوحيد المتوفر – حتى الآن – عما يرويه زروق ، مبتسراً ، هو أنه اختلف مع شيخه الزيتوني – الرجل الكفيف القوي الشخصية – حول أمر من الأمور ، فخرج إثر هذا الخلاف ليقابل ما رواه في « كناشه » ثم عاد إلى فاس واصطلح مع أستاذه بعد ذلك .

وإذا كان حديث ذكريات زروق يتوقف عند عودته تلك ، فإن أموراً جدت بعد ذلك دفعته إلى الهجرة من المغرب حيث طاف بشمال أفريقيا والمشرق حتى حطت به الرحال في مصراتة بعد كثرة ترحال .

١٦ – أبو مدين ، شعيب بن الحسين . ولد بالقرب من اشبيلية بالأندلس ، وتعلم فيها . ثم انطلق شاباً إلى فاس حيث اتصل بكبار الصوفية والعلماء فيها . ورحل إلى المشرق ، وساح . وكان أخذ الطريق عن أبي يعزا يلنور . ثم رجع إلى المغرب حيث توفي في تلمسان سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ م . وله مزار مشهور فيها .

١٧ – كان البحث في الكيمياء (أو السيمياء) بغاية تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب منتشراً انتشاراً كبيراً بين عامة الناس يومها وأدعياء التصوف بصفة خاصة وكانت مؤلفات الطغرائي والبوني وجابر بن حيان الصوفي كثيرة التداول . وإذا كان جابر كيميائياً علمياً وصوفياً روحياً جاداً ، فقد تداخل الأمر بالنسبة لسواه – حتى بات همُّ القوم البحث عن « الإكسير » الذي يحول المعادن إلى ذهب ، وظهرت طائفة « الكنزيين » كما يسميهم « ليون الأفريقي » أي التي تبحث عن الكنوز المدفونة منذ العصور القديمة بواسطة تعاويذ خاصة تتصل بعالم الجن .

وقد كان زروق دائم الشجب لهذا العبث الذي لا طائل من ورائه — كما يقول — والذي يمنعه الشرع والعقل معاً . ونفيه هنا لوجود أي شيء لديه يتصل بالكيمياء التي يطلبها مضيفه بداية لهجوم عنيف شنه على المشتغلين بهذا الفن في « عدة المريد الصادق » و « قواعد التصوف » و « الجامع » و « الرد على أهل البدعة » وغيرها من المؤلفات المدافعة عن نقاء التصوف وصفائه .

١٨ — هذه اللغة العامية التي يسطرها زروق هنا وفيما يلي تضفي جواً خاصاً على الموقف الذي يسجله . فهذا رجل « أمي قريب العهد بالتوبة » يثور من أجل زروق بعد ما أخبرته زوجته بسلب برنسه . وهو في ثورته يتحدث بحديث العامة الذي سجله الشيخ بأمانة واضحة !

١٩ — مثل آخر لمدى سيطرة مدعي التصوف من أهل المخارق والشعبذات على العوام . وكان تأثيرهم كبيراً ، يخشاهم الناس ويتقون أذاهم ويرجون رضاهم . وفي لهجة زروق هنا كما في وصفه للأحداث سخرية واضحة لا تخفى على أحد . وقد بلغ الحال به أن نفى كل ما يدعيه القوم من القدرة على إحداث شيء بذواتهم من خرق العوائد — اللهم إلا ما كان من أمر الله وحده . وكان يقول : إذا رأيتم رجلاً يطير في الهواء فاطلبوا بركته في نفوسكم وقولوا له علانية : أنت ساحر ! كل هذا حتى لا يتأثر العامة بأحد ممن يخدعهم ويستغلهم ويقودهم إلى طريق غير قويم .

٢٠ — ليس اتهام أهل مكناس للشيخ بالجاسوسية غريباً إذا ما أدركنا اضطراب الأحوال في ذلك العصر ومدى الرعب والفزع اللذين سيطرا على الناس سنوات طويلة . وليس هذا أول اتهام له ، ولا كان هذا الموقف أحرج موقف صادفه . . وإن كان القدر يرتب له في كل مرة مخرجاً ينجيه !

٢١ — إذا رجحنا أن سياحة زروق كانت بعد فتنة اليهود وخلع السلطان عبد الحق المريني سنة ٨٦٩هـ . فإن السلطان المقصود هنا هو أبو عبد الله

الحفيد ، محمد بن علي الإدريسي الجوطي ، من أدارسة فاس ونقيب الأشراف فيها آنذاك . وكان أهل فاس قد بايعوه سلطاناً عليهم بعد خلعهم عبد الحق بن أبي سعيد . وقد استمر حكمه إلى سنة ٨٧٥ هـ .

ورفض زروق مقابلة السلطان ذاته وطلبه تجنيبه لقاءه أمر طبيعي من رجل رفض الاشتراك في خلع السلطان السابق ، عبد الحق ، بحجة أن مبايعة ولي الأمر أمانة في عنق الإنسان يجب عليه أن لا يخلعها . فإذا طغا الحاكم واستبد كان تجنبه والابتعاد عنه هو السبيل الوحيد لاتقاء شره . وهذا ما يمكن تسميته « بالمقاومة السلبية » لجبروت بعض الحكام . بل إن موقف زروق من قضية عبد الحق وصلت إلى حد رفضه الصلاة خلف أستاذه أبي فارس الورياغلي ، مفتي فاس وقائد الانقلاب ، « لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق » كما يقرر الناصري . وكان يقول : « لا آمن الغندور على صلاتي » — يعيبه بذلك . (الاستقصا — ج ٤ / ص ١٠٠) .

المحتويات

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الجماهيرية
العربيّة
الليبيّة
الشعبيّة
الاشتراكيّة

طبعة خاصّة
بمناسبة
مهرجان زروق
(الذكرى الخمسمائة لوفاته)

مصراته
١٦ - ٢٠
يونيو
١٩٨٠